دراسات فى الإسلام

٢

er-Risâletü'l-arşiyye

الرسالة العرشية

فى حقائق التوحيد وإثبات النبوة

للشيخ الرئيس ابن سينا

(أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا)

المتوفى سنة ٤٣٨ هـ سنة ١٠٣٧ م

تحقيق وتقديم

الدكتور إبراهيم هلال

كلية البنات ـ جامعة الأزهر

دراسات فى الإسلام

٢

الرسالة العرشية

فى حقائق التوحيد وإثبات النبوة

للشيخ الرئيس ابن سينا
(أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا)
المتوفى سنة ٤٢٨ هـ سنة ١٠٣٧ م

تحقيق وتقديم
الدكتور إبراهيم دسلال
كلية البنات — جامعة الأزهر

مقدمة التحقيق

(أ)

التعريف بالرسالة

قد وصف ابن سينا هذه الرسالة بنفسه عندما قال فى بدئها بعد الحمد لله :

« أما بعد فقد سألنى بعض من ينتمى إلى أن أذكر له رسالة مشتملة على حقائق علم التوحيد على الوجه الذى يجب أن يعتقد فى الله وصفاته وأفعاله ، مجانباً جانب التقليد مائلا إلى محض التحقيق على سبيل الاختصار ، فأجبته إلى ملتمسه مستعيناً بالله ربنا » .

فهى رسالة تدور حول إثبات التوحيد لله سبحانه ، وقد استدعى ذلك منه أن يتكلم فيها عن ثلاثة موضوعات :

الأول : عن صفات الله سبحانه .

الثانى : عن صدور الأفعال عنه .

الثالث : عن قضاء الله وقدره . ومعرفة هذه الثلاثة هو حقيقة التوحيد وبيانها هو بيانه . وقد نهج فى معالجته لهذه الموضوعات نهج مفكر معتمد على نفسه ، وعلى ما يوصله إليه بحثه الخاص ، ونظره فى كتاب الله سبحانه الذى أنزل على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، كما أشار إلى ذلك فيما تقدم : « . . مجانباً جانب التقليد ، مائلا إلى محض التحقيق » .

وقد جعلته هذه الأصالة الفكرية يقيم منهجه على أصول ثلاثة أشار إليها فى قوله : « وهذه الرسالة مشتملة على ثلاثة أصول :

الأصل الأول : فى إثبات واجب الوجود . الثانى : فى وحـــدانيته . الثالث فى نفى العلل عنه . أى عدم وجود علة أو سبب لوجوده ، كما أنه ليست هناك علة غائية لأعماله تجبره على إصدار هذه الأعمال .

وهى فى الواقع أصول عقلية فكرية من نتاج نظره فى القرآن الكريم وعقيدته الدينية كمفكر مسلم ، وإن كان قد غلبه التفكير الفلسفى الذى استقاه من مصادر أخرى غير إسلامية فى بعض المواضع كما سيأتى :

وبهذا يتبين لنا أن ابن سينا فى هذه الرسالة ، شأنه فى بقية كتبه ورسائله يمتح من معينين : معين الكتاب والسنة ، والمعين الآخر : معين التفلسف الأجنبى على مختلف ألوانه (١) . وكلاهما له نتائجه فى أفكاره ، وغايته التى تدل على بدايته .

وهو الذى جعل الإمام ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) يقول فيه : « وصنف ابن سينا كتباً زاد فيها بمقتضى الأصول المشتركة : أشياء لم يذكرها المتقدمون ، وسمى ذلك العلم الإلهى ، وتكلم فى ذلك بكلام فيه شرف ورفعة ، بالنسبة إلى كلام المتقدمين ، وإن كان عند العلوم الإلهية النبوية فيه من القصور والتقصير ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة بالعلم والإيمان ، وإنما راج على من سلك طريق المتفلسفة ، لأنه قرب إليهم معرفة الله والنبوات والمعجزات والولاية بحسب أصول الصابئة الفلاسفة ، لا بحسب الحق فى نفسه .

ولهذا فإن الفلاسفة الباقين على محض كلام المشائين يرون أن ابن سينا صانع المليين لما رأوا من تقريبه ، وجهلوا فيما قالوا ، وكذبوا ، لم يصانع . ولكن قال بموجب الحق ، وبموافقة أصولهم العقلية — ما قاله من الحق الذى أقرّ به » (٢) .

(١) انظر : كتابى (نظرية المعرفة الإشراقية جـ ١ ص ٤١ — ٤٨) . نشر دار النهضة العربية بالقاهرة .

(٢) انظر : مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ ٢ (كتاب توحيد الربوبية) ص ٨٤ طبعة الملك سعود سنة ١٣٨١ هـ .

فكما قال ابن سينا عن نفسه إنه يتكلم فى هذه الرسالة « مجانباً جانب التقليد ، مائلا إلى محض التحقيق . . » . نجد ابن تيمية يرى فيه هـــذه الصورة أيضاً ، ويقول عنه : إنه قال ما قال بموجب الحق الذى أقر به .

وهذا الجانب الإسلامى أو السنى عند ابن سينا قد برز قوياً مبهراً فى كلامه عن صفات الله وبيانها كالآتى بشكل مطرد وبصفة شاملة . فبعد أن تكلم عن الأصول الثلاثة المتقدمة وأثبتها بالطريقة العقلية السنية بدأ يتكلم فى الصفات فيقول : « اعلم أنه لما ثبت أنه واجب الوجود ، وأنه واحد من كل وجه ، وأنه منزه عن العلل ، وأنه لا سبب له بوجه من الوجوه ، وثبت أن صفاته غير زائدة على ذاته ، وأنه موصوف بصفات المدح والكمال لزم القول بكونه عالماً حياً مريداً قادراً متكلماً بصيراً سميعاً ، وغير ذلك من الصفات الحسنى » .

وهكذا يخوض هذا الموضوع بقوة ، ويأتى بكلام فيه شرف ورفعـــة كما قال ابن تيمية حتى ينتهى إلى إرساء التوحيد فى النفوس على هذا الوجه : « فإذا عرفت هذه الصفات ، وعلمت أنه واجب الوجود وأنه لا علة له داخلة ، ولا خارجة ، يسهل عليك معرفة بقية الأشياء والصفات التى أطلقت عليه تعالى ، فإنه إذا قيل حق فمعناه راجع إلى وجوب وجوده .

وإذا قيل إنه جواد فمعناه أنه يفيد الوجود من غير عوض ولا غرض للمدح والتخلص من مذمة ، ولا لقصد ينتفع به من الغير .

وإذا قيل ملك فهو المستغنى الذى يستغنى عن كل شىء ، ولا يستغنى عنه شىء .

وإذا قيل أول فهو باعتبار ذاته هو الذى لا تركيب فيه وأنه المـــنزه عن العلل . . .

فإذا ثبت أنه واجب الوجود ، وأنه لا علة له وأنه تام الوجود ولا يفوت

منه كمال . فإذا عرفت هذا فيعلم أن جميع ما سواه هو فعله ، وأنه صدر عنه لذاته . . » .

فإذا جئنا إلى قوله فى قضاء الله وقدره وجدناه من هذا الطراز وبهذا القول الفصل . فنراه يوضح لنا فكرة الخير والشر ويبين حقيقة الشر ، وما هو الخير ، وأنه قد يكون من كمال الخير وجود الشر ، وعلى هذا فليس الشر شراً إلا من وجهة نظرنا أو لسوء استعمالنا . ومما قاله فى هذا الموضوع : « وأما الشر المطلق والغالب والمساوى فلم يوجد ، لأن احتمال الشر الكثير لأجل أن يحصل خير يسير شر كثير . . . وأما الشر المطلق فممتنع الوجود أصلا ، فلا تقتضى الحكمة إيجاده . وأما الخير الغالب فيجب فى الحكمة إيجاده ، ولا يليق بالجود إهماله لأنه نتيجة العلم السابق بنظام الكل على الوجه التام ، فهو لازم للوجود ، ولأن احتمال الشر اليسير لأجل أن يحصل خير كثير ، خير كثير » .

وابن سينا فى أثناء هذا ، وفى غضون ذلك يستعين بالآيات القرآنية موضحاً بها ، أو شارحاً ، أومستدلا . فجاء بيانه فى هذه الرسالة قائماً على الحجج العقلية النابعة من الوجهة القرآنية السنية حتى إننا وجدناه يأخذ من المعتزلة جانباً ويوجه إليهم لوماً فى مسألة (وجوب الصلاح والأصلح على الله) فيقول : « . . . وأنه لا يجب عليه رعاية الأصلح والصلاح كما هذى به جماعة من الصفاتية ، إذ لو كان ما يفعله من الصلاح واجباً عليه لما استوجب بذلك الفعل شكراً ولا حمداً . لأنه يكون قاضياً لما وجب عليه ، ويكون فى الشاهد كمن قضى دينه ، ، فإنه لا يستوجب به شيئاً بل أفعاله منه وله » .

هذا هو امتداد الخط القرآنى عنده ، ونتيجة الاتجاه السنى ، أما نتيجة الاتجاه الفلسفى فقد ظهر فى استخدامه لنظرية المعرفة الإشراقية ، أو نظرية العقول ، فى تفسير الوحى والنبوة . كما ظهر فى استخدامه أيضاً لنظرية الفيض فى تفسير وجود الكون عن الله أو خلق الله للكون :

أما بالنسبة للأمر الأول فنراه يصف كلام الله سبحانه وتعالى أو وحيه إلى أنبيائه بأنه « فيضان العلوم منه على لوح قلب النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم النقاش الذى يعبر عنه بالعقل الفعال ، والملك المقرب (١) الخ » وكلمة العقل الفعال هذه كلمة لا تعهد إلا فى مجال الفلسفة ، وليس لها وجود فى العلم الإسلامى علم الكتاب والسنة . لا لفظاً ، ولا معنى ، وإنما المعروف أن جبريل هو الملك الموكل بالوحى ، والذى ينزل به على الرسول ﷺ ويتنزل معه لمستوى بشريته فيلقيه إليه بلسان عربى مبين ، كما قال تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » (٢) .

وأما بالنسبة للأمر الثانى ، وهو أخذه بنظرية الفيض فى تفسير الوجود والكون فقد أودع ذلك فى الفصل الخاص بصدور الأفعال عنه سبحانه ، ومن قوله فى ذلك : « . . . فإذا الصادر الأول منه غير جسم ، فهو إذاً جوهر ، وهذا هو العقل الأول . . فالأول عقل ثم نفس ، ثم جرم السماء ، ثم مواد العناصر الأربعة . . . » . وتفصيل ذلك فى موضعه من الرسالة .

وهذا تفسير خاطىء قد جره إليه غلوه فى تنزيه الله سبحانه ، وهو أنه بما أنه واحد وغير مركب ، فلا يصدر عنه جسم ولا مركب ، وكذلك تصوره للخلق بأنه ولادة على طريقة الغنوصيين . ونسى أن الخلق عند الله إنما هو أمر كما قال : (. . . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ، ائتيا طوعاً ، أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها الآية) .

وكما قال : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . وقد رد ابن تيمية عليه فى أكثر من كتاب ، وفند رأيه هذا (٣) .

---

(١) انظر الصفة السابقة .

(٢) سورة الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥ .

(٣) انظر : بغية المرتاد لابن تيمية . ونقض المنطق ، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والنبوات وغيرها ، لابن تيمية . ونظرية المعرفة الإشراقية لكاتب هذه السطور .